القراءة والحث عليها

جمع وترتيب

السيد محمد بن علوي العيدروس

الملقب (سعد)

دار الضياء

للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دار الضياء للنشر والتوزيع

الكويت - حولي - ش الحسن البصري - تليفاكس : ٢٦٥٨١٨٠ (٠٠٩٦٥)

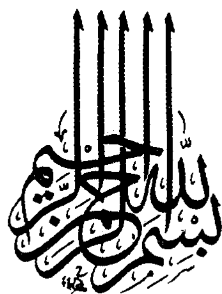
البريد الالكتروني : ilhabeb2000@yahoo.com

القراءة والحث عليها

جمع وترتيب

السيد محمد بن علوي العيدروس
الملقب (سعد)

دار الضياء
للنشر والتوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

القراءة تشحذ الذهن، وتنمي العقل والذوق، وتفتح للشخص القارىء آفاقاً من الفكر، لكن كثيراً من شبابنا مع الأسف الشديد لا يعرفون القراءة الصحيحة، وبالأصح لا يجدون الرغبة الكاملة في عملية القراءة ولا يتقنونها ولا يعيرونها الاهتمام الكامل.

كما أن القراءة لها أهمية كبيرة في إزالة الغباء والجهالة عن الشخص القارىء ولها الأثر الكبير في زيادة المعلومات، وكان كثير من العلماء و الأدباء علمهم وطلبهم الذي أخذوه عن الشيوخ قليل ومحدود ولكن المطالعات والقراءة الجدية والمكثفة الكثيرة هي التي وسعت علومهم وأداركهم وأوصلتهم إلى أعلى المستويات العلمية والأدبية، وجعلتهم فطاحل لا يخوض معهم خائض في شيء من المناقشات إلا وأشبع الفصل في أي موضوع كان، في مختلف فنون الأدب أو التاريخ أو الحديث أو الفقه أو التفسير وغيرها...

لأنهم كانوا إذا سمعوا الفصل بكتاب مما يروق لهم الإطلاع فيه، أخذوا وسعوا في طلبه وأقبلوا عليه إذا وجدوه، كما يقبل الظمآن إلى بارد الماء، وكاد يلتهمه كما يلتهم الجائع الخبز . . .

وربما قرأه في يومه أو ليلته، أو ربما كان قرأه في مجلس واحد، هكذا كانوا يقرؤون قراءة جيدة مع هضم لكل ما في الكتاب . . . وإعادة بعض العبائر المعقدة أو التي تلتبس عليه في العبارة بتدقيق وتحقيق وتلخيص.

وهكذا ورد إلى سمعنا أن شخصاً كان يبحث عن كتاب مخصص ولم يجده، فوجده أحد أصدقائه ليلة زفافه، فوضعه على الطريق المؤدية إلى المنزل الذي فيه العروسة وكان هذا الشخص (العريس) من شدة حرصه على اقتناء الكتب وقراءتها وحب الإطلاع فيها أن حمل هذا الكتاب ليرى عنوانه فوجده الكتاب الذي طالما يبحث عليه، فأخذ يتصفحه ورقة ورقة، حتى أنهاه مع طلوع الفجر، وشغله ذلك عن عروسه ونسيها ولم يلتفت إليها . . . هكذا كان عشاق القراءة وحب الإطلاع.

كذلك ورد عن السيدين الإمامين طاهر وعبد الله ابني حسين بن طاهر أنهما كانا لا يأكلان معاً في وقت واحد، بل

يأكل أحدهما ويقرأ عليه الآخر، وينتهي من الأكل هذا ويبدأ الآخر يقرأ عليه، حرصاً منهما على الوقت، وحبهم للقراءة والإطلاع.

مما سبق ذكره يتضح لنا أن القارىء الصحيح المتمكن من قراءته هو الذي لو كان عنده رغبة في النوم أو يشعر بتعب أو بدأ يداعب عيونه النوم لطار النوم منه والكسل وذلك بقراءته في كتاب، وعكس ما نحن فيه، إذا أحد منا حمل الكتاب وأخذ يقرأ فيه بدأ يتثاءب حتى يغلب عليه النعاس قبل أن يمر في قراءته على صفحة أو صفحتين على الأكثر، والبعض منا يأخذ الكتاب ويقرأ وهو مستلق على وساده وثيرة، فيبدأ يقرأ فتثقل جفونه حتى يسقط الكتاب من يده من دون أن يشعر به، ثم يأخذ في سبات عميق لأنه أخذ الكتاب ربما ليتلهى ويتسلى به...

كما أن بعض الشباب يستعيرون الكتب من المكاتب التي فتحت خصيصاً لتنور عقولهم، فيضع هؤلاء الكتاب المستعار في زاوية الإهمال مدة من الزمن حتى يطلب منه المسئول على تلك المكتبة إعادة الكتاب، ولو سألته هل قرأت الكتاب الذي استعرته؟ ـ إذا صدق في حديثه ـ قال: تصفحت بعض أوراقه أو قرأت جزءاً يسيراً منه...

وهكذا كله يعود لعدم الرغبة الصحيحة الكاملة في حب القراءة والاستفادة منها، وإنما يأخذها البعض لمجرد التسلية وتضييع الوقت أو للمراء لا أقل ولا أكثر، كما أنه إذا وجدت لدى الشخص قليل من الرغبة في القراءة فلا تصاحبها هناك سيادة على نفسه لترغمها على الإستمرار والتواصل في القراءة، لأن النفس تريد قهر وصلابة في بادىء الأمر حتى تتوطن على حب القراءة والإطلاع.

فأين لنا اليوم بمثل صاحب العمائم الذي احترقت عليه نحو من أربعة عشر عمامة وهو يطالع على ضوء مسرجة ضئيلة.

وكذلك أذكر من المتأخرين السيد العلامة أحمد بن عمر الشاطري صاحب كتاب «الياقوت النفيس» كان عندما يجلس معه أحد من الدهاة يظن أنه خريج جامعة عصرية، أو يحمل شهادة عليا دكتوراه أو غيرها، حيث التقى معه مرة جماعة من مصر من خريجي الجامعات وفي اللقاء تم التباحث معهم حول مصر وعن الأزهر وعلمائه، فدهشوا منه واستغربوا لكثرة معلوماته الثقافية المتعددة، وكادوا لا يصدقون بأنه لم ينتظم للدراسة في المدارس الحديثة، ولم يسافر خارج مدينة تريم.

لماذا ... وكيف ... وماذا تقرأ؟

الرد على الجزء الأول ورد في سياق المقدمة بينما الرد على الشق الاخر من السؤال خلال ما يأتي:

فالقرآن الكريم في أول آية منه أمر بالقراءة، وأقسم الله تعالى بالقلم تبياناً لأهميته ومكانته، وهناك الآيات الكثيرة التي تمدح العلم الذي يزداد من كثرة القراءة والمطالعة، وهناك أحاديث كثيرة تتحدث عن نفس الأمر ثم كثير من أقوال الصحابة والعلماء والصالحين تتحدث عن ذلك أيضاً.

ومع هذا كله وللأسف الشديد يمكن لأي واحد منا أن يلحظ دون عناء بأن الكثير من أبناءنا عازفون عن الكتب وقراءتها ومطالعتها، وما مقصود تلاميذ المدارس وطلابها من طلب العلم إلا نيل الشهادة فقط، لهذا ينبغي على كل المربين والمعلمين أن يهتموا بعملية القراءة في مدارسهم لأنها تعتبر فن من الفنون.

كما يتطلب أن يتعلموا ويعلموا في مدارسهم طريقة القراءة الصحيحة والمفيدة، ويعملوا على تحبيب عملية القراءة في

نفوس تلاميذهم وطلابهم، وحبذا لو يعطى لكل تلميذ كتاباً يتناسب مع مستواه التعليمي ومداركه الذهنية والعقلية، ليقرأه لوحده في منزله - وذلك كواجب منزلي - ومن ثم يقوم بتلخيص محتوياته، وتقدم إليه عدد من الأسئلة حول أهم مواضيع ونقاط الكتاب الذي قرأه، ونقترح أن يكون هذا بشكل أوسع في الإجازات الصيفية والعطل الرسمية للمدارس، ليحثوا بذلك تلاميذهم وطلابهم على القراءة والإطلاع، ويتطلب أن تتكرر تلك العملية ليتعود التلاميذ القراءة، فكل شيء بالتعود والمران، حيث أن فائدة القراءة عظيمة جداً مثل ما أوضحنا، وَتَخَلُقُ في عقل الإنسان أثراً طيباً.

قال الشاعر:

أعز مكان في الدنا سرج سابح

وخير صديق في الزمان كتاب

فالكتاب نعم الصديق خاصة في هذا الزمان الذي فيه قلَّ الأصدقاء الحقيقيون، بل يوجد فيه أصدقاء العافية كما قال في ذلك الإمام الحداد:

لقد عز في هذا الزمان مساعدٌ

يعينك في مجد وينهاك عن سفلِ

إذا قلـت خيـراً قـال لبيـك مسـرعـاً

وإن قلت شراً قال أقليك أو تقل

وهذا بزمان الحداد فكيف زماننا هذا !!

فإذا لم تشغل نفسك بالقراءة شغلتك بالأشياء التافهة، كما قيل (هي نفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشر)، لهذا مـن الضـروري التفـرغ للقـراءة المكثفـة والمتـواصلـة التـي بواسطتها يكون الكتاب أفضل صديق لك، وأحسن زميل يهـذب عقلـك، ويشغـل فـراغ ذهنـك عـن طـريقهـا ذوقـك وأحاسيسك ومداركك.

وللقراءة الصحيحة والمفيدة شروط نذكرها بشيء من الإيجاز والتركيز كالتالي:

١ـ اقرأ قراءةً جيدة بتمعن وتَروِّي لهضم المحتويات التي تمر عليها أثناء قراءتك.. ومن ثَمَّ تُقَيِّد ما يحتاج تقييده من المعلومات والأمور المهمة.

٢ـ عليك باختيار الكتب النافعة والمفيدة في موضوعها ولمعرفة ذلك اقرأ الفهرسة أولاً ومن خلاله يتم الاختيار، وهل تفيد قراءة هذا الكتاب أم لا؟

٣ـ إذا اخترت الكتاب لقراءته، فعند قراءتك إبدأ من أوله إلى آخره، واحذر التنقل والتصفح فإن فائدة ذلك تكون محدودة قليلة.

٤ـ لا تقرأ الكتاب ذا الموضوع الراقي المهم والأسلوب اللغوي الراقي وأنت مجهد الفكر أو يتملكك أي تشويش أو قلق، أو تشعر بحاجة إلى النوم... بل اجعل قراءة ما ليس مهم ـ مثل الذي لا يحتاج إلى كثير من التركيز والاستيعاب ـ في مثل تلك الحالات السابق ذكرها، وذلك كالجرائد والصحف والكتب الخفيفة في مواضيعها أو الصغيرة في حجمها.

٥ـ من التجربة اتضح أن القراءة الليلية أفضل من القراءة النهارية وذلك من حيث الاستيعاب والفهم.

٦ـ ابدأ بالقراءة في الكتب التي توجد لديك رغبة وهواية في مواضيعها، كمثل كتب الأدب والتاريخ أو غيرها، حتى تشبع تلك الرغبة داخل نفسك وتغني تلك المواضيع المرغبة لديك.

٧ـ ضع نصب عينيك هذه العبارة: (ولكن قل لي كم صفحة فهمت؟).

٨ ـ ومن خلال التجارب العديدة في القراءة اتضح أن القراءة الصامتة أفضل من القراءة الجهرية وذلك من حيث التركيز والإلمام بالموضوع.

٩ـ أعد قراءة الموضوع الذي يروق لك أو المفيد في مضمونه ومحتواه حتى يرسخ ويثبت في ذهنك.

١٠ـ الجملة أو العبارة الصعبة في فهمها أو المعقدة في أسلوبها، دوِّنها وَمُرَّ عليها في قراءتك مرور الكرام، ولا تجعلها عائقاً لك عن قراءة الكتاب والاستمرار فيه، و بعد إتمام قراءة الكتاب اسأل معلمك أو من يفوقك في المعلومات والمستوى ليفيدك في حل تلك الأشياء الصعبة أو المعقدة أو التي لم يصل إليها فهمك.

١١ـ في أثناء القراءة كن بعيداً عن الضوضاء وتواجد الأطفال ولعبهم، وأيضاً كل ما يزعج أو يلفت الانتباه حتى يبقى ذهنك وحواسك في حالة من التجمع والهدوء والتركيز وعدم التشاغل بكل ما هو موجود حولك.

باتباع الشروط السابقة في أثناء قراءتك للكتب ستلاحظ بأنه لن يمر عليك وقت طويل حتى تعرف مدى الذي تخلفه لك القراءة في تحسين عقلك وذوقك وأخلاقك وسلوكك واتجاهاتك، وإذا استمريت في ممارسة عملية القراءة ستصبح لك عادة وسجية.



مكتبات بيع الكتب.. وعملية القراءة

إن المكتبات في وقتنا الحاضر زاخرة بالكتب والحمد لله، ولكن الإقبال على شرائها واقتنائها قليل جداً، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على عدم حب القراءة والتزود بما في بطون الكتب من معارف ومعلومات.

سألت مرة صاحب إحدى مكتبات البيع عن الكتب التي يستورد منها بكميات كبيرة؟ فكان رده عليَّ بأننا لا نأخذ من كل عنوان إلا عشرة كتب فقط، وذلك لأن بعض تلك الكتب يبقى عندنا المدة الطويلة، ولا يسأل عليه أحد!! خاصة المجلدات الضخمة ذات القيمة العالية والمنافع المتعددة.

وأوضح بأن الإقبال يتم على شراء الكتب المدرسية المنهجية والكتيبات الصغيرة ذات الثمن الرخيص، ومن الجدير ذكره هنا أن ارتفاع أسعار الكتب له تأثير مباشر في عدم اقتناء الكتاب وشرائه وبالتالي القراءة، ولكن نرى بأنه ينبغي على كل شخص منا أن يسعى ويوفر من دخله ولو جزءاً بسيطاً يخصصه لشراء

الكتب المفيدة يؤسس بواسطتها مكتبة خاصة بمنزله، ويستفيد منها هو وأفراد أسرته منها في عملية القراءة.

فكما يهتم الإنسان بغذائه الجسمي، عليه أن يهتم أكثر بغذائه الروحي والعقلي الذي يكون من خلال القراءة والإطلاع، كما أقترح ونحن نعيش موجة الغلاء الباهض في أثمان الكتب أن يستفيد الإنسان الراغب في القراءة من عملية الإعارة للكتب خصوصاً من المعروفين بالعلم والصلاح، والذين أظنهم لن يمانعوا ذلك.

وهناك فكرة أخرى: وهي أن تقوم إحدى الجمعيات الخيرية أو غيرها بفتح مكتبة خاصة لكراء الكتب وتسليفها، وتوضع لمثل تلك المكتبة لائحة داخلية تنظم عملها، ومن ضمن بنودها أن يدفع الشخص المستعير أو المكتري للكتاب مبلغاً رمزياً زهيداً كرسوم لإعادته الكتاب، على أن يتم أيضاً من قبله الاهتمام الكامل بالكتاب والتحفظ عليه من التمزيق والضياع، وإعادته بعد قراءته في الوقت المحدد من قبل المكتبة.

فهذه فكرة تحتاج إلى بحث ودراسة من قبل المختصين بالأعمال الخيرية ومن المربين، والمرتبطين بالثقافة والعلم.

نماذج من عشاق القراءة ومحبيها

روى الخطيب البغدادي في كتابه (تقييد العلم): عن أبي العباس المبرد، قال: ما رأيت أحرص على العلم من ثلاثة:

- الجاحظ (إمام أهل الأدب).
- الفتح بن خاقان (الأديب الشاعر).
- إسماعيل بن إسحاق القاضي (الإمام الفقيه المالكي البغدادي).

فأما الجاحظ: فإنه كان إذا وقع بيده كتاب قرأه من أوله إلى آخره، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر في الكتب.

وأما الفتح بن خاقان: فإنه كان يحمل الكتاب في كمه أو في خفه فإذا قام من بين يدي المتوكل للصلاة أو للحمام، أخرج الكتاب فنظر فيه وهو يمشي، حتى يبلغ الموضع الذي يريده، ثم يضع مثل ذلك في رجوعه إلى أن يأخذ مجلسه، فإذا أراد المتوكل القيام لحاجة أخرج الكتاب من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل إلى حين عوده.

وأما إسماعيل بن إسحاق القاضي، فإني ما دخلت عليه قط إلا رأيته وفي يده كتاب ينظر فيه أو يقلب الكتب لطلب كتاب يقرأ فيه.

قال الحافظ الذهبي في كتاب (تذكرة الحفاظ): [قال أحمد ابن مردويه: كان أبو نعيم الأصفهاني في وقته محولا إليه، لم يكن في أفق من الآفاق أحد أحفظ منه، ولا أسند منه، كان حفاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده، وكل يوم نوبة واحد منهم، يقرأ ما يريد إلى قريب الظهر، فإذا قام إلى داره ربما يقرأ عليه في الطريق جزء وكان لا يضجر ولم يكن له غداء سوى التسمع والتصنيف].

وفي كتاب (تبيين كذب المفتري) للحافظ ابن عساكر و(طبقات الشافعية) لتاج الدين السبكي، في ترجمة الإمام سُليم الرازي؛ قال الحافظ ابن عساكر: [لقد حدثني عنه شيخنا أبو الفرج الإيفراني: أنه نزل يوماً إلى داره ورجع فقال: قد قرأت جزءاً في طريقي].

قال أبو الفرج: حدثني المؤمل بن حسن أنه رأى سليما حفي عليه القلم، فإلى أن قطّه جعل يحرك شفتيه، فعلم أنه يقرأ بازاء إصلاحه القلم.

قال الحافظ الذهبي في كتاب (تذكرة الحفاظ) في ترجمة الخطيب البغدادي: (كان الخطيب البغدادي يمشي وفي يده جزء يطالعه).

قال عبد الغافر الفارسي في كتابه (سياق نيسابور): سمعت (إمام الحرمين) أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني النيسابوري الشافعي في أثناء كلام له يقول: (أنا لا أنام ولا آكل عادة، وإنما أنام إذا غلبني النوم ليلاً كان أو نهاراً، وآكل إذا اشتهيت الطعام أي وقت كان، وكانت لذته ولهوه ونزهته في مذاكرة العلم).

وجاء في كتاب (إنباء الرواة عن أنباء النحاة) للقفطي قال: (رأيت وأنا صبي أبا يوسف يعقوب بن خرّازاذ البجيرمي ماشياً في طريق القرافة شيخاً أسمر كبير اللحية، مدور العمامة و بيده كتاب يطالع في مشيه).

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في كتاب (ذيل طبقات الحنابلة): إن الإمام أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي كان يقول: (أنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفراً على المطالعة، أو تسطير فائدة).

وللحث على القراءة

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: (الدراسة صلاة).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة).

ولقد كانت همم القدماء من العلماء علية، تدل عليها مؤلفاتهم وتصانيفهم المتنوعة التي هي زبدة أعمالهم، إلا أن من كثرة المؤلفات والتصانيف دثرت، لأن همم الطلاب في وقتنا الحاضر ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطولات من الكتب، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت لذلك الكتب ولم تنسخ.

فسبيل طالب الكمال في طلب العلم: الإطلاع على الكتب التي قد تخلفت عن المصنفات، ما يشحذ خاطره ويحرك عزيمته للجد، وما يخلوا كتاب من فائدة.

فملاحظة سير السلف وتراجمهم، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم والاستكثار من الإطلاع والتعرف على كتبهم؛ رؤية لهم كما قال الشاعر:

فاتني أن أرى الديار بطرفي ... فلعلي أرى الديار بسمعي

ومما قيل في استعارة الكتب:

ألا يــا مستعيــر الكتــب دعنــي
فــإن إعــارتــي للكتــب عــار
فمحبــوبــي مــن الــدنيــا كتــابــي
وهــل شــاهــدت محبــوبــاً يعــار

ومما قيل في وصف الكتب:

لنــا جلســاء لا نمــل حــديثهــم
ألبــاء مــأمــونــون غيبــاً ومشهــدا
بــلا كلفــة تخشــى ولا ســوء عشــرةٍ
ولا تلــق منهــم لســانــاً ولا يــدا
فــإن قلــت أحيــاء فلســت بكــاذب
وإن قلــت أمــواتــاً فلســت مفنــدا

وقال الشاعر:

حبيبي من الدنيا كتابي فليس لي
إلـى غيـره مـا بـي إليـه مـن الفقـر
كأن لصوق الروح بالروح مانح
دنـوا بـلا بعـد ووصـلا بـلا هجـر
فكـرسيـه حجـري إذا نمـت قـاعـدا
وإن اضطجع أفرشه مستلقيا صدري

وقال آخر:

لكل كلام موضع من كتابه
كنظم عقود زينته الجواهر

فإنْ نَظَمَ العقد الذي في جوهر
على غير تأليف فما العقد فاخر

وممن كان كثير المطالعة للكتب السيد حاوي الفضائل أبو بكر بن أحمد بن أبي عبد الله بن أبي بكر بن علوي بن عبد الله ابن علي بن الشيخ عبد الله باعلوي، وله جَلَدٌ عظيم على قراءتها، فربما استوعب المجلد الضخم في يوم أو في ليلة، وبلغني أنه قرأ الإحياء في عشرة أيام، وهذا أمر عجيب بالنسبة لأهل الزمان وإن كان حكي عن بعض الحفاظ ما هو أعظم من هذا فقد قرأ محدثون صحيح مسلم في ثلاثة أيام، وذكر العسقلاني أنه قرأ البخاري في خمسة مجالس وبعض مجلس، وذكر الذهبي أن الحافظ أبا بكر بن الخطيب قرأ البخاري في ثلاث مجالس، قال: وهذا شيء لا أعلم أحد في زماني يستطيعه، والذي رأيته في ترجمته أنه قرأ في خمسة أيام و أظنه الصواب. انتهى.

وذكر السخاوي أن شيخه ابن حجر الحافظ قرأ سنن ابن ماجه في أربعة مجالس، وكتاب النسائي الكبير في عشرة

مجالس كل مجلس حوالي أربع ساعات، ومعجم الطبراني الصغير في مجلس واحد بين الظهر والعصر وهذا أسرع ما وقع له، وفي التاريخ أن إسماعيل بن أحمد النيسابوري قرأ البخاري في ثلاثة مجالس يبدأ من المغرب ويقطع القراءة وقت الفجر ومن الضحى إلى المغرب والثالث من المغرب إلى الفجر، وحكي أن حافظ المغرب أبا القاسم العيدروني، قرأ البخاري بلفظه أيام الاستسقاء في يوم واحد. انتهى من كتاب المسلك النبوي للحبيب أحمد بن زين الحبشي.

ومما قيل في القراءة للشيخ علي بن أبي بكر السكران هذه الأبيات:

شيئان أحلى من عناق الخرد
وألذ من شرب القراح الأسود

وأعز من رتب الملوك عليهم
حلل الحرير مطرزاً بالعسجد

سود الدفاتر أن أكون نديمها
أبد الزمان وبرد ظل المسجد

وقال الجرجاني رحمه الله:

ما تطعمت لذة العيش حتى
صرت للبيت والكتاب جليسا

ليس شـيء أعـز عنـدي مـن العلـم

فمــــا أبتغــــي ســــواه أنيســــا

إنمـا الـذل فـي مخـالطـة النـاس

فــدعهــم وعــش عــزيــزاً رئيســا

وهناك من حذر من إعارة الكتب أو اشترط بضمانها الرهن الباهظ ليضمن رجوعها لعزها وأهميتها.

ولكل من الفريقين وجهة نظر، فمن رغَّب فيها راعى جانب النفع الدائم والبر الموصول وتزكية النفس من الشح، وطلب المثوبة في ذلك، وإن تلك من شيمة الكرام.

كتب الشافعي إلى محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، يثني عليه ويرغبه في إعارة الكتب حيث امتنع من إعارته كتبه قائلاً:

يا ذا الذي لم تر عينُ من رآه مثله

العلـم يـأبـى أهلـه أن يمنعـوه أهلـه

وقال ابن سكره: كان ابن الخاضبة الحافظ البغدادي، محبوباً عند الناس كلهم فاضلاً حسن الذكر ما رأيت مثله على طريقته، وكان لا يأتيه مستعيـر كتاباً إلا أعطاه إيـاه أو دله عليه.

لكن سوء أدب بعض المستعيرين، وعدم التزامهم بحق هذه الأمانة وصيانتها والمحافظة عليها، والإقدام على أمور

لا ترعى حق المعيـر وسلامة المعار جعل البعض يمتنع من ذلك.

ومن سوء التصرف أن يقدم المستعير على الإصلاح في الكتاب بغير إذن صاحبه أو أن يكتب على حاشيته أو بياض فواتحه أو خواتمه.

ومما قيل في محبتهم للكتب واقتناؤها وحبهم للقراءة والاطلاع، فتجدهم يبخلون بإعارتها خوفاً من إهمالها وضياعها لدى من لا يعطونها قيمتها واحترامها وقدرها.

وقال أبو القاسم على بن الحسن القطيعي:

جـل قـدر الكتـاب يـاصـاح عنـدي

فهـو أغلـى مـن الجـواهـر قـدراً

لسـت يـومـاً معيـره مـن صـديـق

لا ولا مـــن أخ أحـــاذر غـــدراً

مـا علـى مـن يصـونـه مـن مـلام

بـل لـه العـذر فيـه سـرا وجهـراً

لـــن أعيـــر الكتـــاب إلا بـــرهـــن

مـــن نفيـــس الـــرهـــون تبـــراً ودراً

وقال آخر:

أيهـا المستعيـر منـي كتـابـاً
ارضَ لـي مـا لنفسـك تـرضـى

لا تـرى رد مـا أعـرتـك نفـلاً
وتـرى رد مـا استعـرتـك فـرضـاً

وقال آخر:

أعر الدفتر للصاحب بالرهن الوثيق
إنه ليس قبيحا أخذ رهن من صديق

وقال آخر:

أيهـا المستعيـر منـي كتـابـاً
إن رددت الكتـاب كـان صـوابـاً

أنـت والله إن رددت كتـابـاً
كنـت أعطيتـه أخـذت كتـابـاً

وقال آخر:

يـا مـن يـروم كتـابـي — لنسخـه إن رده
أو رغبـة فـي اطـلاع — يبغـي بـذاك الـزيـاده
تـوَقَّ فيـه خصـالاً — تسـويـده وفسـاده

ونـــل مـــرادك منـــه	بـــالفكـــر والاستعـــاده
فـــالعلـــم للمـــرء يحيـــي	تـــامـــوره وفـــؤاده
لا تقصـــدن التـــوانـــي	أمـــانـــة كـــالقـــلاده
إذا فـــرغـــت فـــأســـرع	بـــه إلـــي الإعـــاره
حـــرمـــت تـــأخيـــر أصلـــي	مـــن غيـــر عـــذر أكـــاده
فحبســـه فعـــل ســـوء	وســـرعـــة الـــرد عـــاده
رواه شيـــخ مفيـــد	عـــن معمـــر عـــن قتـــاده

وقال الدارمي في سننه في باب (مذاكرة العلم): (أخبرنا مروان بن محمد قال: سمعت الليث بن سعد يقول: تذاكر محمد بن شهاب الزهري (الحافظ المحدث الفقيه التابعي عالم الحجاز، المولود سنة ٥٨هـ والمتوفى سنة ١٢٤هـ رحمه الله تعالى) ليلة بعد العشاء حديثاً، وهو جالس متوضىء فما زال ذلك مجلسه حتى أصبح، قال مروان: جعل يتذاكر الحديث».

وجاء في (تاريخ الإسلام) و (تذكرة الحفاظ)، في ترجمة مغيرة بن مقسم الضبي: (الفقيه الحافظ أحد الأعلام، أبو هاشم مُغيرة بن مقسم الضَّبِّي الكوفي، الأعمى، مات سنة ١٣٣هـ.

تفقه بإبراهيم النخعي وبالشعبي، وروى عنهما وعن غيرهما، قال فضيل بن غزوان: كنا نجلس أنا ومغيرة ـ وعدَّد ناساً ـ نتذاكر الفقه، فربما لم نقم حتى نسمع النداء بصلاة الفجر).

وروى الحافظ النسائي في (كتاب العلم) والدارمي في(سننه) في باب مذاكرة العلم، والحافظ ابن حجر في (تهذيب التهذيب) في ترجمة عبد الله بن شُبْرُمَةَ القاضي الفقيه الكوفي التابعي، المولود سنة ٧٢هـ والمتوفى سنة ١٤٤هـ رحمه الله تعالى عن الفضيل بن عزوان الضبي الكوفي قال: كنا نجلس أنا وعبد الله بن شبرمة والحارث بن يزيد العلكي والمغيرة بن مقسم الضبي والقعقاع بن يزيد بالليل، نتذاكر الفقه، فربما لم نقم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر، وفي رواية: فلم يُفرق بينهم إلا أذانُ الفجر.

وقال الحافظ الذهبي في (تذكرة الحفاظ) في ترجمة الإمام عبد الله بن المبارك المولود سنة ١١٨هـ والمتوفى سنة ١٨١هـ رحمه الله تعالى (قال علي بن الحسن بن شقيق: قمت مع عبد الله ابن المبارك في ليلة باردة ليخرج من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث وذاكرته، فما زال يذاكر حتى جاء المؤذن فأذن للفجر).

وقال القاضي عياض في (ترتيب المدارك) في ترجمة عبدالرحمٰن بن قاسم العُتقي المصري أحد أصحاب مالك والليث وغيرهما، المولود سنة ١٣٢هـ والمتوفى بمصر سنة ١٩١هـ رحمه الله تعالى: (قال ابن القاسم: كنت آتي مالكاً غلساً فأسأله عن مسألتين أو ثلاثة أو أربعة، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراح صدر، فكنت آتي كل سحر، فتوسدت مرة عتبته، فغلبتني عيني، وخرج مالك ولم أشعر به، فركضتني جارية سوداء له برجلها وقالت لي: إن مولاك قد خرج، ليس يغفل كما تغفل أنت، اليوم له تسع وأربعون سنة قلما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة ظنت السوداء أنه مولاه من كثرة اختلافه إليه.

قال ابن القاسم: وأنخت بباب مالك سبع عشرة سنة ما بعت فيها ولا اشتريت شيئاً، قال: فبينما أنا عنده إذ أقبل حاجٌ من مصر، فإذا شاب متلثم دخل علينا، فسلم على مالك، فقال: أفيكم ابن القاسم؟ فأشير إليَّ، فأقبل يقبل عيني ووجدت منه ريحاً طيبة، فإذا هي رائحة الولد وإذا هو ابني، وكان ابن القاسم ترك أمه حاملاً به وكانت ابنة عمه، وقد أخبرها عند سفره بطول إقامته فاختارت البقاء).

قال القاضي ابن خلكان في (وفيات الأعيان) في ترجمة ابن سيناء الحسين بن علي ابن سيناء العالم الفيلسوف الطبيب المشهور المولود سنة ٣٧٠هـ والمتوفى ٤٢٨هـ رحمه الله تعالى (في وقت اشتغاله بطلب العلم لم ينم ليلة واحدة بكمالها ولا اشتغل بالنهار بسبب المطالعة وكان إذا استشكلت عليه مسألة توضأ وقصد مسجد الجامع وصلى ودعى الله أن يسهلها عليه ويفتح مغلقه له، وكان نادر عصره في علمه وذكاءه وتصانيفه، وصنف ما يقارب (١٠٠) مصنف ما بين مطول ومختصر ورسالة، في فنون شتى، واختلف عليه من فضلاء والعلماء والأكابر يقرؤون عليه أنواعا من الفنون وسنة آنذاك ستة عشر سنة.

وجاء في (ترتيب المدارك) للقاضي عياض في ترجمة أبي عمر بن أحمد بن عبد الملك الأشبيلي شيخ فقهاء الأندلس في وقته المولود سنة ٣٢٤هـ والمتوفى ٤٠١هـ وكان قد حبب إليه القراءة مدة عمره لا يفتر عنها ليلاً ولا نهاراً وجعله فيه لذته، ذكر أن صديقاً له قصده في عيد زائراً له، فأصابه داخل داره، ودربه مفتوح، فجلس ينتظره وأبطأ عليه، فأوصى إليه فخرج وهو ينظر في كتاب، فلم يشعر بصديقه

حتى عثر عليه فيه، لاشتغال باله بالكتاب، فتنبه حينئذ له وسلم عليه واعتذر له من احتباسه بشغله بمسألة عويصة، ولم يمكنه تركها حتى فتحها الله عليه، فقال له الرجل: في أيام عيد، ووقت راحة مسنونة؟! فقال: إذا عَلَت هذه النفس، أَنْضَبَت إلى هذه المعرفة، والله مالي راحة ولا لذة في غير النظر والقراءة.

وجاء في (معجم الأدباء) لياقوت الحموي، في ترجمة العلامة الفلكي الرياضي الفذ، المؤرخ اللغوي الأديب الأريب الجامع لأشتات العلوم أبي الريحان البيروني محمد ابن أحمد الخوارزمي المولد سنة ٣٦٢هـ والمتوفى ٤٤٠هـ رحمه الله تعالى (كان أبو الريحان مع الفسحة في التعمير ـ فقد عاش ٧٨ سنة ـ وجلالة الحال في عامة الأمور مُكباً على تحصيل العلوم، منصباً إلى تصنيف الكتب، يفتح أبوابها ويحيط بشواكلها وأقرابها ـ يعني بغوامضها وجلياتها ـ ولا يكاد يُفارق يده القَلم وعينه النظر وقلبه الفكر، إلا فيما تمس إليه الحاجة في المعاش من بلغة الطعام وعلقة الرِّياش.

وحدث الفقيه أبو الحسن علي بن عيسى الولوالجي، قال: دخلت على أبي الريحان وهو بجود نفسه ـ أي وهو في نزع الروح قارب الموت ـ قد حشرج نفسه وضاق به صدره!!، فقال لي في تلك الحالة: كيف قلت لي يوماً: حساب الجدات الفاسدة ـ أي في الميراث وهي التي تكون من قبل الأم ـ فقلت له إشفاقاً عليه: أفي هذه الحالة؟! قال لي: يا هذا أُوَدِّعُ الدنيا و أنا عالم بهذه المسألة ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها؟! فأعدت ذلك عليه وحفظ، وعلمني ما وعد، وخرجت من عنده وأنا في الطريق فسمعت الصراخ!!».

وجاء في (ذيل طبقات الحنابلة) للحافظ ابن رجب في ترجمة الإمام أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي علي بن عقيل البغدادي، المقرىء، الفقيه، الأصولي، الواعظ، المتكلم، ذي العلوم والفنون، أحد الأئمة الأعلام في الإسلام، ومن أفاضل العالم وأذكياء بني آدم، المولود سنة ٤٣١هـ والمتوفى سنة ٥١٣هـ رحمه الله تعالى، ما خلاصته:

(أنه كان يقول: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تَعطَّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي، وأنا منطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثماني أشد مما كنت أجدهُ وأنا ابن عشرين سنة، وأنا أقصر بغاية جُهدي أوقات أكلي، حتى أختار سف الكعك وتحسيه بالماء على الخبز، لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، وتوفراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه، وإن أجل تحصيل عند العقلاء بإجماع العلماء هو الوقت فهو غنيمة تنتهز فيها الفرص فالتكاليف كثيرة، والأوقات خاطفة).

قال الشاعر النحوي الأريب أبو الحسن أحمد فارس بن زكريا الرازي يشتكي من متاعب الدنيا وتوارد الهموم عليه، ثم يذكر أن سلوى همومه وغمومه وأنيس نفسه وروحه كتبه التي يأوي إليها ويعيش معها فيقول كما في ترجمته في وفيات الأعيان:

قـال كيـف حـالـك؟ قلـت خيـر

تقضـــى حـــاجـــة وتفـــوت حـــاج

إذا ازدحمت هموم الصدرقلنا
عسى يوماً لها انفراج

نديم هويتي وأنيس نفسي
دفاتر لي ومعشوقي السراج

وأعجبني من مقامات عائض القرني هذه المقامة وهي:

أعز مكان في الدنا سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

أنيس إذا جالسته طاب قوله
وليس له عند الفراق عتاب

عليك بالكتاب، فإنه خير الأصحاب، وهو روح المؤانسة، وقوة المجالسة، أَقْسَمَ الله بالكتاب المسطور، في رق منشور، لأن الكتاب كنز الإفادة، وعيون السعادة، وهو أمين لا يخون، وعزيز لا يهون، إن حملته في النادي شرّفك، وإن جهلت أحداً عرّفك، يقوي جنابك، ويبسط لسانك، بالكتاب يجلس الصعلوك على كراسي الملوك، يقوّم الزلل، ويسد الخلل، ويطرد الملل، ويشفي العلل، يحفظ الأخبار، ويروي الأشعار ويكتم الأسرار، ويبهج الأبرار، وهو أشرف لك من المال،

وأطوع لك من الرجال، وآنس عندك من العيال وبه تبلغ الكمال.

ملِلت كل جليس كنت آلفه إلا الكتاب فلا يعدله إنسان

وعاشرته فأراني كل مكرمة لـه علـي رعـاه الله إحسـان

والكتاب إذا خان الصديق وفى، وإذا تكدر الزمان صفا، ينسيك جحود الجاحد وحسد الحاسد وضغينة الحاقد، خليل ما أملحه، وصاحب ما أصلحه، وصامت ما أفصحه، يُقرأ في كل زمان، ويُطالع في كل مكان، على اختلاف الأعصار، وتباعد الأمصار، بشير ونذير ونديم وسمير، إذا وعظ أبكاك، وإن حدث أشجاك، وإذا فرح أضحكك، وإذا بشر أفرحك، سليم من العيب يحمل في الجيب، لا يشرب ولا يأكل ولا يغضب و لا يجهل، إن هجرته حفظ ودك، وإن طلبته صار عندك، يغنيك عن الأرحام والأصحاب والأحباب، فخير جليس في الزمان كتاب.

يقودك إلى الكرامة، ويبعدك من الندامة، ويطرد عنك السآمة، وهو نسب ما أشرفه، وهو بوابة المعرفة وخلاصة الفلسفة، يصلك بأساطير التفسير من كل عالم نحرير وإمام شهير ومحقق بصير، ويحضر لك المحدثين، أهل الرواية

الصادقين والدراية العارفين وجهابذة النقل الواعين، ويجمع لك الفقهاء رواد الشريعة الغراء وأرباب الفهم الأذكياء ويتحفك بقصيد الشعراء ونتاج الأدباء وبيان البلغاء وإنشاء الفصحاء.

يا حروفاً قد أضاءت في الصحف
أخبرتني بأحاديث السلف
قدرها عندي لو تعلمه
كل فضل وجلال وشرف

وجزى الله الكتاب أفضل ثواب، فقد أغناك عن البخلاء وكفاك الثقلاء، وأجلسك مع النبلاء، وعرفك بالفضلاء، يوفي لك الكيل، ويقصر عليك الليل، هو تاجك في كل ناد، وأنيسك في كل واد، وهو سلوة الحاضر والباد، وخير ما أنتجه العباد.

أما تراه خفيف الجسم موضعه
على الصدور بين الأنف والمقل
هو الذي فخم السادات واختلفت
به الملوك وأهل الشأن والدول

اصرف له أثمن الأوقات، وأنفق عليه أعظم الهبات، ولا تطع فيه أهل الشبهات، هو الذي حبب إليك الزمان، وأجلبك في صدور المكان، ليس المجد حلي وآنية ولا دف وغانية ولا

قطوف جانية، وليست السعادة كنز وبنز وبز و جنز ورز وقز فهذا ليس بعز، وليس السؤدد بنود وجنود وحشود ووفود، ولكن المجد والسعادة والشرف والسيادة علم أصيل وبرهان ودليل وكتاب جليل يغنيك عن كل خليل.

أغلقت بيتي على نفسي ومكتبتي
معي العلوم بها ذكر وآثار

جالست في البيت أهل العلم كلهم
هم في الحقيقة إخوان وسمار

فكن جليس بيتك مثل السيف في كرم
في غمده وهو للأعناق بتار

وهذه مقامة للقلم أحببنا ذكرها لأن للقلم علاقة قوية بالكتاب والكتابة وهي تقول:

يا أيها الذي جمع الحكم، أما سمعت نون والقلم وما يسطرون، إن القلم شأنه عجيب، ونبأه غريب، نحيف الجسم عظيم الاسم، جميل الرسم، إن خط في القرطاس أنصت له الناس.

بالقلم تجهز الجنود وترفع البنود وتوثق العهود وتحل العهود، من حروفه يجنى العسل وتسل الأسل، إن شاء فمداده سم الحياة وأم النكبات وسبب البلايا الموجعات، وإن أراد جعل سطوره نوراً وصيرها سروراً وملأها حبوراً ونقها حسناً منشوراً، إذا سال لعابه كثر صوابه وحضر جوابه وتزاحم عبابه، لفظه أعلى من الياقوت، به خط الوحي في الملكوت، مصيبة القلم أنه يذيع الأسرار ولا يكتم الأخبار، إذا تشجع ملأ الصفحات وعبأ المجلدات وبسط المختصرات، وإذا جبن أغز وأوجز، كتب به اللوح المحفوظ وسطر به العلم المحفوظ، أمضى من الألسنة لفظه، ما أحسنه يخبر عن من مات من ألف سنة، تستطر به كل سيئة وحسنة.

إذا خط بالأحمر قلت هذا شفق أو دم على ورق، وإن نسخ بالأسود صار المداد عيون كنوز العباد، وإن كتب بالأخضر قلت هذا طلعة بستان أو بهجة أفنان.

إن سلطته على مختصر شرحه أو على غامض أوضحه أو على عاص نصحه، حذر به المصطفى الأكاسرة وأنذر به القياصرة، صَدَرَ به قتل الحسين وَخُطَّ به خلع الأمين، وسطر به الوحي في طور سينين وروى لنا الجمل وصفين.

إن كتب به الأحمق تدفق ولم يترفق وضل ولم يوفق، وإن كتب به الرشيد جاءك بالقول السديد والعلم المجيد والنقل الحميد.

وهذا مقال من مجلة دعوة الحق[1] استحببنا ذكره هنا ونقلناه بالنص من تلك المجلة المذكورة وهو يحمل العنوان التالي:

أثر الكتاب في حياتنا الثقافية

أول ما يلفت نظر الزائر في أوربا وأمريكا عندما يستخدم القطار أو أية وسيلة نقل أخرى، عكوف الركاب كبيرهم وصغيرهم على القراءة، فهم لا يكادون يضيعون ثانية من هذا الوقت الذي يستغلونه، ويجدونه أفضل مناسبة لمطالعة الصحف اليومية، ولو كانت المسافة التي يقطعونها بين البيت ومكان العمل قصيرة لا تستهلك كبير وقت، أما المسافات الطويلة فيتغلبون عليها بقراءة الروايات والقصص وغيرها.

والذي يدهشنا أكثر هو انتشار المكتبات العامة، الثابتة منها والمتنقلة وتعدد الدور التي تبيع الكتب.

---

(١) مجلة دعوة الحق مجلة قديمة تصدرها وزارة عموم الأوقاف - الرباط - المغرب الأقصى من قبل ٢٥ سنة تقريباً.

واهتمام الدول في إصدار طبعات شعبية لبعض الكتب الثمينة حتى يتمكن كل إنسان من اقتنائها ومطالعتها.

كثيراً ما نتساءل: ما سبب عكوف سكان أوروبا وأمريكا على المطالعة وانصرافنا نحن العرب عنها؟ علماً بأن انتشار وسائل الإعلام الحديثة من إذاعة وسينما وتلفزيون أكثر بكثير مما هو عندنا..

في الواقع أن الطفل عندهم منذ أن يفتح عينيه على الحياة يجد نفسه محاطاً بكل الوسائل التي تشده إلى الكتاب، ذلك لأنه يندر أن نجد بيتاً خالياً من رفوف الكتب والمجلات الأدبية والعلمية والثقافة التي توسع آفاق الإنسان، وتجعله يعيش ماضي هذا العالم وحاضره ومستقبله بالإضافة إلى ما في المطالعة من متعة وسعادة لا تضاهيها أية متعة وسعادة أخرى.

إن متعة الكتاب دائمة، فنحن نستطيع الرجوع إليه في أية لحظة نشاء؛ في الليل والنهار، جالسين أو واقفين وماشين أو على الطعام.

إن القراءة مهارة تشبه السباحة والرقص والرياضة، وبمجرد أن نلم بفنون القراءة، ونعتاد على ممارستها، فإن سرعتنا فيها لابد أن تنمو، كما لابد أن يزيد فهمنا لما نقرأ، ومن

الأمور الهامة في حياتنا أن نكون قادرين على القراءة الجيدة، وبذلك نحرز نجاحاً في أعمالنا، وفي الفنون المتعلقة بكياننا كبشر.

كثيراً ما يكتفي المتخرجون من الجامعات بالمعلومات التي تلقوها خلال سِنِيِّ دراستهم فيقفون عندها دون طلب الزيادة، بحجة أن أمور الحياة لا تدع لهم مجالاً للقراءة، ولكنهم نسوا أن الفكر بحاجة إلى غذاء يومي كالمعدة، وإلا تحجرت أذهاننا، وتصلبت معلوماتنا، وتقوقعت أفكارنا، خاصة أن الحياة تقدم لنا كل يوم بل كل ساعة شيئاً جديداً بحكم سنة التطور، ومتابعة الإنسان البحث والتنقيب في شتى المجالات، جديداً في العلم وجديداً في الاختراع، وجديداً في الفن، وجديداً في الأدب، سواء كنا أطباء أم محامين، أم مدرسين أم مهندسين، أم جنوداً أم موظفين، فإننا بحاجة ماسة إلى القراءات اليومية الدائمة في ساعات الصباح الباكر، حيث يكون الذهن نشيطاً وصاحياً، وبعد تناول طعام الغداء قبل القيلولة، وفي الليل عندما يخيم الصمت وتلف السكينة الكون، قبل أن نسلم أعيننا لنوم هادىء عميق إذ لا شيء يحمل النوم إليها مثل الكتاب[1] الذي يجب أن يبقى تحت الوسادة، أو في متناول أيدينا ونحن نضطجع فوق

أسرتنا في ساعات الليل الأخيرة . . إنها لحظات لا أحلى ولا أجمل، فقد نام كل ما في الكون، وهدأت الحركة، واختفى الضجيج الذي يثير الصغار في الداخل ووسائط النقل في الخارج.

إننا هنا نجد في الخلود إلى الكتاب لذة هانئة ما بعدها لذة، ولا ننسى أننا كلما قرأنا حصلنا على مزيد من المعلومات، واليوم الذي لا نزيد فيه حصيلتنا الفكرية يجب أن لا نعده من حياتنا، وكلما نمت قدراتنا على القراءة المثمرة.

ويصف الجاحظ الكتاب بقوله: (الكتاب نعم الذخر والعقدة، ونعم الجليس والعدة، ونعم النشر والنزهة، ونعم المستقبل والحرفة، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاد الغربة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل . .

الكتاب وعاء ملء علماً، وظرفاً حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً وجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فوائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه، ومن لك بواعظ مثله، وزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار.

فمتى رأيت بستاناً يُحمل ردن، وروضه تقلب في حجر، وناطق ينطق عن الموتى ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن أهل الأرض، وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة).

ثم يبين الجاحظ أن الإنسان ينسى الكلمة، أما الكتاب فلا ينسى ولا يبدل كلام بكلام، وهو الذي يطيعك في الليل كطاعته في النهار، ويطيع في السفر كطاعته في الحضر، ولا يقبل النوم ولا يعتريه كلال السهر، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يخذلك، وإن قطعت عنه المادة، لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعاديك لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبل كان فيه غنى من غيره، ولم تضطرك وحشة الوحدة إلى جليس السوء، ويكفي الكتاب فضلاً أنه يمنعك من الجلوس ببابك والنظر إلى المادة نظرات فيها شيء من الفضول، وهو عنده أفضل من القصور المبنية بالحجارة لأنها تهدم والكتاب لا يهدم.

هذا الكتاب الذي وصفه لنا الجاحظ في القرن التاسع الميلادي أصبح في القرن العشرين مهدداً بالإهمال، ويعلوه

الغبار فوق رفوف المكتبات، قل من ينقب عنه، رغم ما فيه من مادة جذابة مشوقة وإخراج أنيق، وطباعة مغرية لأن التلفزيون والسينما والإذاعة وصحف الأخبار اليومية والمجلات الرخيصة المائعة راحت تنذره، فهب الكاتب الفرنسي جورج ديهاميل للدفاع عنه مبيناً واقعه بقوله:

(الكتاب مهدد مستقبله لا بالمكروب، بل بانصراف جماهير البشر عنه، فهل هذا لأن الجماهير الآن أقل حباً للإطلاع منها في القرون الماضية، أو أنها أقل تعطشاً للمعرفة؟ لست أقول شيئاً عن ذلك، ولكني أقول أن الجماهير البشرية أخذت تُشبع شيئاً فشيئاً حاجتها للمعرفة دون الرجوع للكتاب فالرجل المتوسط في الأعم الأغلب لا يجد وقتاً متسعاً، ولا مالاً كثيراً، ولا عزماً مثابراً ليرضي حاجاته الروحية فقدرته على الإنتباه والإطلاع قد استغرقتها عدة آلات قوية الأثر، نافذة الإستهواء كالراديو والسينما، تشغل من يوم إلى يوم مكاناً أكبر لا في وسائل تسلية رجل القرن العشرين فحسب، بل في ظواهر تكوينه الظاهرة، إذ تختلط الأخبار بالمعارف والتسلية بالعلم اختلاطاً مخيفاً في نفس الرجل المتوسط).

ويعلن جورج ديهاميل قلق قادة رجال الفكر في العصر الحديث من هذه الظاهرة الخطيرة، ويخشى كما يخشون من أن الإنسانية ستحتفظ بتراثها لا في المكاتب بل على اسطوانات من «الباغة» أو في أشرطة من الغراء.

والسؤال الذي يحير ديهاميل هو: هل الباغة والغراء آمن على نقل معارفنا وأصلب مقاومة من الورق أم لا؟ وهل الخير لمستقبل عبقرية البشر أن نحل محل الكتاب ـ صديق الوحدة ـ عدداً من الأدوات الصالحة صلاحاً خطراً لأن تخلق عقلية القطيع التي يخلقها الراديو والسينما والتلفزيون؟..

ما الفرق بين ثقافة الراديو وثقافة الكتاب؟ بكلمات نجيب:

ـ الأولى ثقافة عابرة آنية سريعة لا تستقر في أعماق النفس،

ـ والثانية مطمئنة فيها قابلية الرسوخ وإمكانية الاستقرار.

قارىء الكتاب يقف في كل حين ليفكر أو ليحاول أن يعود فيتناول الفقرة من جديد، يقرأها مرة ثانية وثالثة ورابعة بل عاشرة وهذه الطريقة لا تتفق وفنون الحركة، فإننا عندما

نسمع سيمفونية أو نشاهد تمثيلية لا نستطيع أن نعود إليها، في حين أن الكتاب يمكننا من التفكير تفكيراً ضرورياً، فإن كان الكتاب جيداً عدنا إلى قراءته من جديد، والنظر عن قرب في بعض التفاصيل.

كثيراً ما نسمع تمثيلية من الراديو، أو نشاهدها على الشاشات أو التلفزيون ثم يصادف أن تقرأها هي بالذات في كتاب، فنجد فارقاً عظيماً بين اللذة البطيئة الهادئة التي حملها إلينا الكتاب، واللذة العارضة التي عبرت أفق أنفسنا ثم انطفأت بانطفاء المشهد أو بانقطاع الصوت.

من المحتمل أن نعود بعد سماع الراديو أو مشاهدة الفيلم إلى الكتاب لاستدراك الجزئيات والتفاصيل التي لم يتح لنا أن نعيها بسبب انصرافنا الطارىء إلى حاجة ما، لكن هذا الاحتمال ضعيف إذ أن في طبيعة الراديو الجارفة ـ التي تشبه النهر ـ ما لا يساعد على التفكير، أي على الثقافة الحقيقية، فهو والسينما يقدمان أشياء مسرفة في الكثرة، لا نشعر معها برغبة في أن نحقق أو نختبر أو نكمل، بل ولا في أن نفهم، وإنما نأخذ منهما ما نأخذ خطفاً وكيفما اتفق، وأما ما يفوتنا فليفت، وليس هذا من منهج الثقافة...

إن ثقافة الراديو والسينما والتلفزيون تطبع الناس جميعاً بثقافة واحدة معينة لا تكاد تختلف من فرد إلى آخر، أما الكتاب فهو يغذي الفردية المحررة، فالرجل عندما يقرأ إنما يختار مادته، وهو إذ يختارها يفلت من القوى التي تحاول أن تطويه تحت مذهب ما، والراديو على العكس، وأداة لروح السيطرة، فهو لا يطهر الإنسان، ولا يصرفه كالكتاب إلى الوحدة المقدسة . .

أنا أقول أن تتركوا الراديو والسينما والتلفزيون، بل اعتزلوها كل يوم ساعات لتقرؤوا أو لتفكروا إن أراد كل واحد منا أن يجد روحه وأن يقويها.

كلمة أخيرة أقولها لهواة هذا الثلاثي الشاغل هي إن الكتاب يجب أن يسكن معنا في بيوتنا، وأن نعتبره واحداً من أفراد أسرتنا لا غازياً معتدياً ولا ضيفاً من ثقلاء الظل.

يقول أمين الريحاني: (إن بيتاً يحوي مكتبة بقصد العلم لا بقصد التزيين لهو بيت يشرف صاحبه وأمته).

دمشق عيسى فتوح



حكم حول القراءة

- القراءة من غير تأمل كالأكل من غير هضم .
- لا تقل لي كم كتاباً قرأت ولكن قل لي كم سطراً فهمت .
- الأدب يستر قبيح النسب .
- الفضل بالأدب بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب .
- زكِّ قلبك بالأدب كما تزكي النار بالحطب .
- الحياء كتاب يتصفحه الأحمق من دون اكتراث ولكن العاقل يقرأه بعناية عارفاً أنه لن يقرأه مرة أخرى .
- العقل بلا أدب كالشجر العاقر ومع الأدب كالشجر المثمر .
- الأدب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت .
- الإنسان أيام فإذا مضى يوم مضى بعضه .
- كلام الرجل ميزان عقله .
- تعلمت الأدب من قلال الأدب .
- الليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما .
- الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا .

○ الفشل أو درجات النجاح.

○ لو صور العقل لأضاء معه الليل ولو صور الجهل لأظلم مع النهار.

○ كل نَفَسٍ من أنفاسك جوهرة لا تقدر بثمن.

○ الكسل مفتاح الفقر.

○ من أحب الفرج فليحب التعب.

○ يصل إلى البحر من سار مع النهر.

○ ليس المهم أن تقرأ بسرعة ولكن الأهم من ذاك هو معرفة ما لا يجب أن تقرأه.

○ إذا ضيعت الوقت وأنت شاب ضيعك الوقت وأنت كهل.

○ الزمن مسابق لا يُسبق، وغاضب لا يمهل، ومدرس قاس.

○ الوقت سلاح ذو حدين من حاول قتله قتله الوقت.

○ الوقت لا يعمل لمصلحة أحد، إنما على الناس أن يعرفوا كيف يستخدمون الوقت ويستفيدون منه.

○ إن ساعة واحدة حافلة بالأمجاد تساوي عصراً برمته عاطلاً عن المجد.

○ التأجيل لص الزمان.

o نتحدث عن قتل الوقت وننسى أن الوقت هو الذي يقتلنا.

o سر النجاح هو أن نعرف الوقت الذي نحتاج لكي ننجح.

o قد ضيعت الوقت والآن الوقت يضيعني.

وختاماً فالقراءة هي مفتاح الفهم والعلم والإدراك وهنا لفتة عجيبة، وهي أن أول آية نزلت من القرآن الكريم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١]. تحث على القراءة، ومعنى هذا أن على المسلم يعلم علم اليقين بأن القراءة هي مفتاح الأمر كله، وهي بداية كل أمر.

نسأل الله أن ينفع بهذه الفوائد ويجعلها خالصة لوجهه الكريم، والحمد لله رب العالمين.



الفهرس